

دور اللغة العربية في العلاقات بين المغرب ودول افريقيا جنوب الصحراء.

ربيع رشيدى

rabirusydi@gmail.com

جامعة محمد الخامس الرباط

Abstract

This paper examines the role of the Arabic language in the relations between Morocco and Sub-Saharan Africa by highlighting issues such as Sufism, which was decisive in the radiance of this language in these areas whose inhabitants were basically Christian or pagan. The Sunni Sufism imposed on Africans the need to learn and master the Arabic language, which will later be used to write the African history which has long been oral. Moroccans have played a decisive role in this regard by transmitting the literary experience since the conquest of Western Sudan by Ahmed Al-Mansour Al-Zahabi in 1591. Therefore, the Arabic language has increased the consolidation of bilateral relations through cultural exchange during certain historical periods as well as through student envoys and religious disciples. These relations are evident today and developed to reach the economic and political levels by virtue of the Arabic language, the Maliki doctrine and the Tijani sufism.

Keywords: Sub-Saharan Africa / Arab Culture / African Literature / Arabic Language /

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى إمطة اللثام عن جوانب دور اللغة العربية في العلاقات بين المغرب دول افريقيا جنوب الصحراء وذلك بتسليط الضوء على على قضايا من قبيل التصوف الذي كان حاسما في اشعاع هذه اللغة في هذه البقاع، فبواسطته زاد الإسلام انتشار ووصل على مناطق كانت اغلب ساكناتها مسيحية او وثنية. لقد فرض التصوف السني على الافارقة ضرورة ضبط واتقان اللغة العربية وفهم واستيعاب قواعدها، والتي سيعود إليها الفضل فيما بعد إلى تدوين الافارقة لتاريخهم الذي ظل شفهيًا لآمد طويل وقد لعب المغاربة دورا حاسما في هذا الصدد من خلال نقل التجربة الأدبية منذ فتح السودان الغربي على يد احمد المنصور الذهبي سنة ١٥٩١، وعليه فإن اللغة العربية زادت من توطيد العلاقات الثنائية من خلال تبادل المعرفة خلال محطات تاريخية بعينها وكذا من خلال تلقي العلم عبر رابطة التلمذة او المريدية، ولعل هذه العلاقات باقية اليوم وتطورت إلى مستويات تجاوزت الجانب العلمي والثقافي ووصلت إلى حد ما هو اقتصادي ودبلوماسي وتبقى العربية والمذهب المالكي

والتصوف التجاني العناصر المؤتثة لهذه العلاقات الراهنة في إطار مايسى بالدبلوماسية الموازية .

الكلمات المفتاحية: افريقيا جنوب الصحراء / الثقافة العربية/ الأدب الإفريقي/ اللغة العربية

مقدمة

لعبت اللغة العربية دورا كبيرا في أسلمة جزء كبير من دول إفريقيا جنوب الصحراء، وأشاع الثقافة العربية فيها، كما أن التصوف والمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية اكتسحت هذه البقاع واضطرت ساكنها إلى فهم واتقان هذه اللغة لاستيعاب فحوى ومضامين العقيدة والشريعة الإسلاميتين، ومن خلال مسح طبوغرافي للمجال المدروس يتضح انتشار الكثير من الطرق الصوفية كالتجانية والحموية والفاضلية كما أن المريدين الأوائل الذين نشرها لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد دراسة اللغة العربية والانفتاح على أصولها لغة ونحوا، وهو ما مكهم لاحقا من كتابة تاريخهم الذي كانت تطغى عليه ثقافة المشافهة المرتبطة بطبائعهم البدوية، والملاحظ أن اتصال العرب بإفريقيا جنوب الصحراء حدث منذ أقدم العهود، فاليمن القديمة وصل نفوذها السياسي إلى القرن الإفريقي والحبشة، كما كانت علاقة غرب إفريقيا بشمالها قديمة، ونظرا لأن إفريقيا تأسست بها دول و ممالك ذات جذور عربية إسلامية، فقد كان لذلك دور كبير في تطور اللغات الإفريقية كلغات هجينة عربية، وقد لعب في هذا أيضا دور التصاهر بين العرب و الأفارقة، أضف إلى ذلك الدور الحاسم للعلاقات التجارية التي كانت وسيطا بين الدول العربية ونظيرتها الوثنية.

يعتبر ميلاد الإسلام، وتطور الحضارة المرتبطة به نقطة تحول حاسمة أعادت إلى الحساب ماضي التأثير العربي لغة وثقافة؛ ليصل العمق الإفريقي وأقاصي الغرب منه. وعلى هذا الأساس فاللغة العربية لم تكن مجهولة عند الأفارقة، وإن كان معظمهم لا يتقنونها، ولكنها كانت فقط مجرد لغة للتفاهم مثل اللغات الأخرى. غير أن ظهور الإسلام باللسان العربي انتقل بهذه اللغة من مجرد لغة للحديث إلى لغة مقدسة. ونتيجة لذلك، تأثرت العديد من اللغات العالمية باللغة العربية، وكان من بينها اللغات الإفريقية بصفة عامة. ويعتبر التصوف والفقهاء العنصران الأساسيان اللذان أشاعا الثقافة العربية في هذه البقاع وبخاصة التصوف التجاني السني الذي وجد إقبالا لم يعهد له نظيرا مقارنة مع الطرق الصوفية الأخرى. تحاول هذه الدراسة البحثية الإجابة عن عدة أسئلة محورية منها على سبيل المثال لا الحصر؛ كيف ساهمت اللغة العربية في توطيد العلاقات بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء؟ ما هو دور المغاربة المسلمون في أسلمة إفريقيا جنوب الصحراء؟ وكيف ساهموا في نشر اللغة العربية على نطاق واسع من خلال كتب التصوف والمذهب المالكي؟ وكيف مكنت اللغة العربية من كتابة تاريخ دول إفريقيا جنوب الصحراء؟

١/ اللغة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء الواقع والمآل:

شهدت اللغة العربية تراجعا ملحوظا على الصعيد الأفريقي وبخاصة في أعقاب قدوم الاستعمار الأوروبي وتوغله في الأراضي الأفريقية وما صاحبه من فرض ونشر للغات المستعمر خاصة اللغتين الفرنسية والانجليزية على حساب اللغة العربية، ومحاربة لنفوذ وتفوق وانتشارها على الساحة الأفريقية، وبالرغم من كون اللغة العربية في غرب أفريقيا قد تمتعت بمكانة متميزة على الخريطة اللغوية لأفريقيا؛ حيث استقرت في غالبية أنحاء القارة منذ وقت

طويل سبق دخول أي لغة من اللغات الأوربية إلى القارة السمراء، وتحدّث بها عدد كبير من الأفارقة وانتشرت بينهم انتشاراً كبيراً إلا أن انتشار اللغة العربية بهذا المعنى في أفريقيا مرتبط بانتشار الإسلام فيها. وعند الحديث عن تاريخ القارة لابد من التمييز فيه بين المصادر العربية والغربية، إذ كل مصدر له وجهة نظر في الموضوع، فالمصادر الكبرى هي العربية. فتوالى الكلام عن انتشار الإسلام والعربية انطلاقاً من طوابع الفتح الأول من مملكة غانا التي دخلت إلى الإسلام عن طريق تجار العرب الوافدين إليها، ثم إن الجانب الصوفي أدى إلى انتشار اللغة العربية في القارة السمراء بشكل سريع، لكن استقرار الاستعمار في المنطقة أدى إلى انحسار هذه اللغة واللغات المحلية بشكل كبير.

من جهة أخرى ساهم وجود كتاتيب ومدارس قرآنية في نشر اللغة العربية وثقافتها على نطاق أوسع، وقد كان الاهتمام بها باكراً والتي يعود تاريخها إلى أربعينيات القرن الماضي إضافة إلى إنشاء (مدرسة) دار الحديث في الستينيات، و مدرسة الثقافة الإسلامية...وبعد مجيء المستعمر الفرنسي، ركز اهتمامه على استقطاب أبناء بعض الأهالي وتعليمهم ثم بعثهم إلى الدول الأوربية، والذين يعود لهم الفضل في النداء بفكرة الاستقلال التي أسسوا لأجلها جمعيات لتحقيقها. ومع الجيل الجديد، نشأت فكرة تدعو إلى دمج العربية في المدارس الحكومية ومازال الأمر بين أخذ ورد، ولعل السبب الرئيسي من وراء ذلك هو الاسلام. بعد استعراض المراحل التي قطعتها العربية بعد الاستقلال، اعترفت بعض الحكومات الافريقية وعلى سبيل المثال لا الحصر الحكومة الإيفوارية التي نادى في الستينيات الأخيرتين بمئات المدارس العربية الإسلامية، ومنذ الستينات إلى اليوم، أنتجت هذه الجهود جامعات ومعاهد تمكّن الدارسين بالعربية من أبناء الدولة متابعة دراساتهم العليا ببلدهم، إلا أنه

يبقى التحدي الكبير هو الثنائية اللغوية بين العربية والفرنسية في المدارس الحكومية، إذ أن المراحل التي قبلت من طرف الحكومة هي المراحل الابتدائية.

وبالحديث عن تاريخ دخول العربية إلى افريقيا جنوب الصحراء، فإننا سنجد أنفسنا أمام مراحل نستعين بمثال عن ذلك هو (نموذج نيجيريا) -عصر الاستهلال : بعد ١٠٠٠ إلى ١٣٠٠ : كانت العربية لم ترق إلى مستوى التأريخ في نيجيريا.

-عصر الدعاة الوافدين : اللغة العربية ارتقت نسبيا، حتى أن المناظرة كانت في المنطق.
-عصر الفودي (عثمان الفولاني) : بلغت فيه ازدهارا ملحوظا، وكانت تعتمد في الكتابات الرسمية، وقد كوّن عثمان الفودي دولة إسلامية في هذا العصر. ثم كثرت التأليف بالعربية.
-عصر الاحتلال البريطاني: كرّس فيه المستعمر جهوده لطمس العربية.
-عصر الاستقلال: انقسم المجتمع فيه إلى اتجاهات، وكان كل فريق يسعى إلى تطوير اتجاهه، ولحل هذه المشكلة سعى العلماء إلى تأسيس المدارس والسعي إلى تعريب الألسنة.
-عصر الازدهار: عصر نمو تمثل في وجود وسائط وأدوات تطويرية جعلت العربية ترتقي، باعتماد آليات متنوعة.

العربية لا زالت تعاني من إقصاء على حساب اللغات الأخرى.

الملاحظ أن ساكنة افريقيا جنوب الصحراء بكل أطيافها وفئاتها تشبّثوا باللغة العربية واعتزوا بها، بل تغنوا بها من خلال نظمهم لأبيات شعرية مضامينها هجينة بين اللغة الأم واللغة العربية، ونفس الشيء ينطبق على موريطانيا حيث أن عامل الإسلام، والانتماء

المذهبي إلى الملكية ساهما في ترسيخ اللغة العربية وثقافتها مما حدا بهذه الدولة ان تلعب دور الوسيط بين المغرب ودول افريقيا السوداء لنقل الثقافة العربية. ورغم أن ترسيم هذه اللغة وقع في وقت عسير، سنوات الأربعينيات بعدما فتحت فرنسا حق الإسهام في القرار، دافع الممثل عن ترسيم اللغة العربية، والمطلوب هو أن يناوئ عن التوظيف الإيديولوجي الذي يعتبر تحديا، و التحدي الآخر هو بقاء الإدارة الفرنسية رغم ترسيم اللغة العربية، ثم وطأة العولمة ومسار التنميط الكوني في غياب أي سياسة تنافس وتدعم العربية ، وآخر التحديات هو انسداد الأفق التنموي الذي أفضل التعرب في غرب إفريقيا.

٢/ العلماء المغاربة ودورهم في إشعاع اللغة العربية وثقافتها وكتابة التاريخ المحلي للسودان الغربي:

لقد انتشر الإسلام ومعه اللغة العربية في دول افريقيا جنوب الصحراء في بيئات شعبية حضرت فيها الثقافة المسيحية بشكل قوي، و الملاحظ حسب أحد الباحثين أن الإسلام انتشر بكل يسر وبشكل طوعي لمشيئة الله (مارسيل بوزرا، ٢٠٠٠- : ٣٤) وحسب إحصائيات ١٩٤٦ فإن مجموع المسلمون مقارنة بالمسيحيين والوثنيين شهد ارتفاعا كبيرا، (٩٠ بالمائة في النيجير، و ٨٥ بالمائة في السينغال، وفي غينيا ما يناهز ٨٠ بالمائة، وفي مالي والفولتا العليا ٦٠ بالمائة، وفي نيجيريا ما يزيد عن على ٤٥ بالمائة، وفي الكوديفوار حوالي ١٥ بالمائة، وفي الداهومي ما ينيف على ٧ بالمائة، وفي غامبيا أكثر من ٢٥ بالمائة وفي غانا أكثر من الثلث (La Transformation de L'Afrique noire, P.680 – 725) لابد من الإشارة إلى أن السودان الغربي ظل خاضعا للسيادة المغربية منذ حملة أحمد المنصور الذهبي (١٥٩١م) إلى حدود

القرن التاسع عشر رغم ما اعتراه من ضعف واضح وما يشهد على علاقة الولاء بين الدولة المغربية وهذه البقاع رسائل شيخ تمبكتو ومبعوثهم إلى السلطان المغربي الحسن الأول في موضوع طلب النجدة ضد المستعمر الفرنسي ((أحمد الازمي، ٢٠٠١: ٤٤)) ولعل هذا يبرر الوحدة العضوية بين المغرب ودول افريقيا جنوب الصحراء والتي وتمتد جذورها من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السينغال والمتمثلة في وحدة ساكنته الدينية واللغوية والعرقية والمذهبية. والجدير بالذكر أن عدة علماء شدوا الرحال إلى جامع القرويين بفاس لتلقي العلم ومقابلة العلماء (أحمد الازمي، ٢٠٠١: ٤٤) أو لركب الحجيج الذي كان يمر بمراكش و سجلماسة (محمد المنوني، ٣٩)

لقد نتج عن هذا التلاقح المعرفي بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء انتاجات أدبية باللسان العربي ونخص منها بالذكر :

❖ كتاب فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور لمحمد البرتلي الولاتي (محمد البرتلي

الولاتي، ١٩٨١)

❖ بلاد شنقيط للخليل النحوي.

❖ ضالة الاديب لسيدي بن عبد الله بن سيدي محمد الصغير بن أنبوجة التيشتي

(سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد، ١٩٩٦)

❖ روض شمائل اهل الحقيقة لابن حم

من خلال الأدوار الطلائعية التي لعبها المنقفون المغاربة في السودان الغربي لترسيخ اللغة العربية، ظهر جيل جديد من أبناء المنطقة شرعوا في تدوين تاريخهم باللسان العربي سيما

وأنة جرت العادة أن يظل تاريخ المنطقة شفهيًا لأمد بعيد وهو ما كان يطرح مشكلًا في حفظ الذاكرة الجماعية، والملاحظ من خلال فحص مضان هذه الكتب العربية أنه تمت قصور على مستوى المكان في المتون السودانية (أحمد الشكري، ٢٠٠٢: ٣٠٥)

تمكن أهل السودان من اللغة العربية فأول ما شرعوا فيه تدوين تاريخهم باللسان العربي، والملاحظ أن المدونين انشغلوا بمسألة التدوين أكثر من ضبط اللغة على مستوى النحو وما يليه؛ وكمثال عن ذلك اكتفاء أسرت كَعْتُ، وعبد الرحمان السعدي، وصاحب "تذكرة النسيان" ومولاي قاسم بالتركيز على منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجير دون غيرها من أقاليم السودان الغربي (أحمد الشكري، ٢٠٠٢: ٣٠٦) لقد لعب المغاربة وبخاصة الفقهاء منهم دورًا محوريًا في تلقين، من سيصبحون مؤرخين للمنطقة، دروسًا في اللغة العربية وعلومها، فهذا المغيلي، الفقيه المغربي، ذو الصيت الذائع في ربوع المغرب سيصبح مصدرًا ثمينا لمحمود كعت، الجد مؤلف تاريخ الفتاش، أهم مصدر عربي يؤرخ لبلاد السودان الغربي.

نعود الآن إلى عيوب الكتابة العربية التي اعترت النصوص لدى مؤلفي أقاليم السودان الغربي؛ والملاحظ، وكما ذهب إلى ذلك المغربي المختص في الدراسات الإفريقية الأستاذ أحمد الشكري، أن هذه الكتابات تعترها هتاتٌ على مستو الشكل والمضمون، من قبيل مدى جرأة أصحابها على التأليف واعتمادهم على الإختزال و اشتهاً بعضهم بالانتحال، وإغفالهم للبعد الزمكاني في ما يخص الرواية التاريخية.

نأخذ كمثال عن ذلك مستوى الجرأة على التأليف يرى أحمد الشكري أنها كانت مفتقدة في جميع الحقول المعرفية التي كانت متداولة وقتئذ سيما وأن المدون يحتاج دائما إلى من يدفعه دفعا للكتابة، من قبيل أصدقائه او اقربائه أو تأليفه تحت الطلب (جرت العادة ان يكتب المؤلف تحت الطلب منذ العصر الاموي وتعززت هذه الظاهرة خلال فترة الازدهار في الفترة العباسية). بأمر من أمير أو سلطان، مما يعني أن جل المؤلفات العربية التي كتبها غير الناطقين بهذه اللغة في أقاليم السودان الغربي إما جاءت تحت الطلب ولم يكن الدافع إليها رغبة شخصية في التأليف (احمد الشكري، ١٨٣٧ : ١٧٠) ومهما قيل عن دوافع الكتابة باللغة العربية فإن المقصود من أجل هذه المهمة إنما تتوفر في شروطها وتمكنه من الصنف المعرفي المراد التأليف فيه، أو باعتباره من الراسخين في العلم. غير أن هذه الصفات لا نجد لها آثار بادية حينما يتعلق الأمر بالمؤلفين الأفارقة سيما وأن المشهد الثقافي لهذا المجال الجغرافي كان أكثر تواضعا، والتمكنون من الحقول المعرفية في الثقافة العربية الإسلامية مفقودون اللهم إذا تعلق الأمر بالنزر القليل، ولعل السبب في ذلك طغيان الثقافة الشفهية (محمد القاضي، ٢١٩) مما يحجب عنا في بعض الأحيان معرفة أصحاب بعض المؤلفات التي ظل بعضها مجهول المصدر إلى يومنا هذا، مما يصعب معه تحقيق سيرة المؤلفين السودان (احمد الشكري، ٢٠٠٢ : ٢٧١) والراجح أن هذه العادة السيئة تم التراجع عنها من قبل المدونين السودان مما يشير إلى تغير جذري في نمط حياتهم المعيشية وبالتالي تغير الطابع الاجتماعي للمعرفة، وحسب محمد القاضي فإن المجتمع العربي الإسلامي شهد نفس التحول إذ ارتبط الانتقال من حالة المشافهة إلى وضعية التدوين بانتقال المجتمع العربي من حالة البداوة إلى حالة التمدن.

تمت نماذج بعينها تشكل حالة الاستثناء من هذه الوضعية الشاذة وهو نموذج أحمد بابا التنبوكتي (أحمد بابا التنبوكتي، ٢٠٠٤ : ٦٨ - ١٣) فأسلوبه في الإنتاج الأدبي العربي مطبوع بالنزعة النرجسية التي عهدناها لدى المؤلفين العرب، وما يؤكد ذلك أن نخبة من المغاربة اخذوا عنه من فقهاء وقضاة ومتصوفة (أحمد الشكري، ٢٠٠٢ : ٢٧٣) خلال إقامته بالمغرب، وبعضهم أكبر منه سناً. ولعل هذا النموذج المثقف هو من الحالات النادرة التي دفعت البعض لتقديم شهادتهم إزاءه فصاحب الرسالة الغلاوية (محمد النابغة بن عمر الغلاوي، ٢٠٠٤ : ٥٨) (ت ١٨٦٨) وصفه بصقر العلماء لتمكنه وسعة علمه (أحمد بابا التنبوكتي ، ٢٠٠١ : ٤٥ . ٩١ ، ٩٨ - ١٠١). كما أنه اشتهر في أوساط النخبة بالفتاوي التي كان يصدرها انطلاقاً من المغرب أو مصر. وما عدا ذلك فجل الكتابات السودانية جاءت مخلة بشروط التأليف التي عهدت على العرب بمن فيهم المغاربة ومنها عدم قدرتهم على التصنيف (المقدمة . الأبواب . الفصول . الخاتمة) كما ان متونها تفتقد لأدوات التقييم والعناوين الفرعية وهو ما كان يطرح مشاكل جمة بالنسبة لمحققي النصوص المخطوطة.

وعلى المستوى اللغوي فالملاحظ ان المؤلفين الأفارقة السود يدبجون نصوصهم بعبارات دراجة متداولة في بيئتهم بل أننا نجدها حتى على مستوى عناوين الكتب، وعلى مستوى النحو والاعراب او الرسم فالمؤلفون لا يحترمون القواعد المؤصلة للغة العربية ف "ال" التعريف يمكن أن تسقط أو تضاف بحسب صوت أو نظر اللغات المحلية كما ان تأنيث المذكر أو العكس مما جرى به اعمل في هذه البيئة. كما يلاحظ من خلال فحص هذه المتون تداخل وخطب بين المعلومات حيث جرت العادة باستعمال التنبيهات، والفوائد، والتتمات، أو الذيل (حمد الشكري، ٢٠٠٢ : ٢٧٦)

٣ / دور التصوف المغربي السني في تطور اللغة العربية ببعض دول إفريقيا جنوب الصحراء :

انتشرت الطرق الصوفية والزوايا المرتبطة بها في كل أنحاء إفريقيا بكل قبائلها وحواضرها و مداشرها، وعلى سبيل المثال لا الحصر كانت الزوايا تملأ أحياء السينغال (J,Trincaz Colonisation et religion en Afrique noire, P.60.) كما هو الحال بالنسبة لمدينة فاس المغربية. وقد سجل التصوف حضورا قويا بأفريقيا خاصة وأنه سعى إلى القضاء على التطرف والعادات التي كانت تسيء لكرامة الإنسان وهو ما دفع "فنسان مونتاني" إلى القول "لولا المتصوف لكانت جماعة الوُولوف من القتلة ("). وقد لعب المغرب دور الوسيط في نقل الثقافة العربية والإسلامية إلى دول إفريقيا جنوب الصحراء، حيث انتشرت على نطاق واسع مؤلفات متصوفة مغاربة أفذاذ (انتشرت مجموعة من الكتب التي حفزت الأفارقة على تعلم اللغة العربية الفصيحة ومنها على يبييل المثال لا الحصر: حكم بن عطاء الله بشرح زروق الفاسي، عدة المريد، كتاب التشوف إلى رجال التصوف، مخمسات العشرينات، كتاب المدارك، المدخل إلى تنمية الأعمال لابن الحاج، دلائل الخيرات الأكثر تداولاً في ساحل العاج حسب ما ذكره الرحالة بول مارتى (P. Marty: Etude sur L'Islam en Cote d'ivoire,P.31)) وقد اعتمدت هذه الكتب كإطار مرجعي للدراسة والتكوين باعتبارها تندرج ضمن البرنامج التعليمي العام على الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه باعتبارها تنشر البدع في الأوساط الإفريقية إلا أن الراجع، وهذا رأي العموم، كون هذه الكتب ساهمت وبشكل كبير في نشر الاسلام والثقافة العربية على نطاق أوسع. و قبل الانتقال إلى رصد دور إحدى هذه الطرق، من خلال نموذج الطريقة التجانية، في نشر

الإسلام والثقافة العربية بدول إفريقيا جنوب الصحراء لأبأس أن نعرج على أهم الطرق التي ساهمت هي الأخرى في هذا الإجراء ومنها :

❖ الطريقة القادرية:

هي من أقدم الطرق الصوفية بدول إفريقيا جنوب الصحراء، قبل أن تحتل مكانتها الطريقة التجانية، وتنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي عاش خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وقد وصلت طريقته إلى إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن الخامس عشر الميلادي بفضل الدور الرائد الذي قام به الشيخ "أحمد البكاي" الكنتي بالصحراء الكبرى بفضل مريديه وفقهاء المنطقة الذين كان لهم الفضل في نشر الطريقة على نطاق واسع بلغ حدود السنغال ومالي و النيجر؛ ومن جملة هؤلاء نجد "محمد بن عبد الكريم المغيلي" شيخ أحمد البكاي بن محمد الكنتي المعروف برحلاته الصوفية ذات المنافع التجارية والدينية.

يمكن الحديث عن ثلاثة فروع للطريقة القادرية بدول إفريقيا جنوب الصحراء ويتعلق الأمر ب: (الطريقة القادرية الكنتية نسبة إلى الشيخ بوكنتة، والطريقة البكائية نسبة لمؤسسها الشيخ سيديًا، والطريقة الفاضلية التي تعود للشيخ سَعْدْبُوهُ. بالعودة إلى الخريطة الجغرافية للطريقة القادرية بإفريقيا جنوب الصحراء يتضح أن هذه الطريقة انتشرت على نطاق أوسع (نصف مليون قادري بالسينغال، أما في مالي فقد انتشر القادريون في الحواضر الإدارية) وبالعودة على رواية بول مارتي سنجد أن القادريين انتشروا على طول نهر النيجر ونفس الشيء ينطبق على الكامبيرون وأحوازاها.

❖ دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام العالم والثقافة العربية في دول افريقيا

جنوب الصحراء:

ليس من باب الصدفة القول أن الطريقة التجانية انتشرت في صفوف أعيان المجتمع المغربي لولا ارتكازها على المذهب المالكي، الذي تميزت مضامينه بالاعتدال والوسطية، ولعل هذه السمة ساعدت التجانيين في بدايتهم الأولى على مواجهة الخصوم؛ من خلال ترجيح كفة الوسطية على "التطرف"، لنشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة. لكن الدارس لمتون التجانية سيتوصل لامحالة إلى كون هذه الطريقة قد تمكن أصحابها من علوم الظاهر (العلوم المتصلة بالقرآن والحديث) وعلم الباطن الذي لا يأتيه الله إلا لمن يشاء، وبناء عليه فأدوات الحجاج والمناظرة والسجال الفكري الذي اعتمدها التجانيون المغاربة والأفارقة بالخصوص كانت تفيد تمكّنهم من هذه العلوم قبل أن يستوعبوا الباطن، وهو ما تبينه كتاباتهم ومراسلاتهم الإخوانية وأجوبتهم (لم يكن بوسع التجانيين اقناع مرديهم بمقولات الطريقة التجانية وكرامات مؤسسها سيدي احمد التجاني لولا اعتمادهم في اجوبتهم ادلة دامغة عمادها ما تضمنته كتب الفقه المالكي وبخاصة الموطأ والمعيان ... فقد تمكن مثلا أبي عبد الله محمد اكنسوس من خلال الأجوبة التي قدمها لمريده أبو الحسن علي بن الطيفور السامكوني، المسماة ب" الأجوبة الزنجفورية في الأسئلة الطيفورية" من نشر طريقته على نطاق واسع في دول افريقيا جنوب الصحراء وينشره لهذه الطريقة انتشرت معها الثقافة واللغة العربية وقواعدها. بل وحتى بعض العقود التجارية وفتاويهم التي حررها تجانيون يعتبر الحاج الحسين الإفرائي (هو قطب الطريقة التجانية بالجنوب المغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين. لعب دورا كبيرا في تثبيت دعائم هذه الطريقة في ما وراء نهر السينغال من خلال ربطه لعلاقات رفيعة المستوى مع نخبة دول

افريقيا (توجد مراسلاته في إحدى خزانات مالي والسينغال)) (ت ١٩١٠)، الذي كان قاضيا و نوازليا بسوس الأقصى (يقع جنوب المغرب ويفرق بينه وبين سوس الأدنى وادي وُلْغاس (وادي ماسة)). واحدا منهم. ولقد كان سيدي أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية واحدا من الذين صدوا باب مواجهة والسجال الفكريين نظرا لمكانته العلمية التي أصبح يتبوأها بها بعد ترجيح كفته على غريمه الفقيه الطيب بن كيران وذلك في إحدى جلسات المجلس العلمي السلطاني الذي كان يتأسسه المولى سليمان (أحمد الأزمي، ٢٠٠١: ١٥٣) (١٨٢٢، ١٧٩٢) بمناسبة تفسيرهما لسورة الناس، ولا مرأى من كون المغرب كان له الفضل الكبير في إيصال الطريقة التجانية إلى بلاد السودان الغربي بواسطة قناة اللغة العربية؛ فالأفارقة جنوب صحراويين يعتبرون فاس (مدينة مغربية أسسها الادريس الأول وتعتبر العاصمة العلمية للمغرب منذ تأسيسها إلى اليوم وتوجد بها اعرق الجامعات الإسلامية يتعلق الامر بجامع القرويين الذي بنته فاطمة الفهرية خلال فترة يحي بن ادريس الثاني). محجهم الأول قبل مكة، إن التجانيين حاولوا تكييف مضامين النص المالكي بشكل يتلاءم وظروف المرحلة التي عاشوها، وهو ما ينطبق بشكل تام على عمل التجانيين الأفارقة في مواجهة أشد خصم لهم وهم الحمويين.

إن حركة الطريقة التجانية ببلاد السودان الغربي لا تختلف عن نظيرتها بالمغرب فمريدي هذه الطريقة الذين كانوا منخرطين سابقا في الفاضلية والحموية لم ينسلخوا عنهما إلا بعدما بذل الشيوخ الأوائل جهدا كبيرا في سبيل إقناع المريدين الجدد؛ لهذا نجد الحاج عمر الفتوي، الذي في عهده وصفت السينغال بالدولة التجانية، يفسر بأدوات عقلية وأخرى نقلية لا تخرج عن ما جاء بين دفتي الموطأ وغيره من كتب المالكية وذلك من أجل إقناع

مريديه بفضل الطريقة وصلاح شيخها سيدي أحمد التجاني وأحقيته على باقي الأولياء ومن تم التسليم بمقولاته التي تذهب إلى حد أقول بختمية طريقته للطرق و ختميته للأولياء.

٤/ الحركة الثقافية بين علماء المغرب والسودان الغربي ودور الطريقة التجانية والمذهب المالكي في تنشيطها :

لعبت الجغرافية والتاريخ دورا مهما في نسج علاقة التقارب والصلة العلمية والروحية بين علماء المغرب والسودان الغربي، ومعلوم أن هذه العلاقة تركزت بالأساس في حواضر مناطق التماس بين المنطقتين (الشيخ محمد الأمين بن محمد بيب، ١٣:٢٠:١٢) ، فأشاعت نوعا من التفاعل التاريخي بين هؤلاء العلماء، ومنذ العصر المرابطي استطاعا "يحي بن إبراهيم الكدالي" و"ابي عمران الفاسي" محو البدعة في بلدان السودان الغربي ووحدها بمذهب سني موحد. ومهما قيل عن هذه المرحلة إلا أن الصلة تجسدت بشكل كبير بعد الصراع المرابطي الموحد وبالخصوص أثناء هجرة العلماء المرابطين نحو الجنوب المغربي وانتعاش الحركة الثقافية في الفترة المرينية والسعدية ومع ذلك فندرة المصادر والوثائق المحلية يجعل هذه الفترة يكتنفها نوع من اللبس والغموض مقارنة مع مرحلة حكم العلويين الذين ازدهرت في عهدهم الحركة الثقافية العربية من خلال الفتاوى المرفوعة لدائرة العلماء، ومن خلال أجوبتهم يتضح مدى تمكن هؤلاء من مصادر المذهب المالكي واللغة العربية الفصيحة، هذا بالإضافة إلى الأخذ والعطاء المباشر، وحضور المؤلفات المغربية المالكية في مجال السودان الغربي.

أ/أسلمة بلاد السودان الغربي ودور الطريقة التجانية والمذهب المالكي في ذلك:

تزامنت الصحوة الثقافية لبلاد السودان الغربي مع حدث انهيار الحضارة الإسلامية العربية، وهو ما انعكس سلباً على الوضع الثقافي بهذه البقاع بشكل سلبي. حيث وجدت صعوبات جمة منعت من الانتقال من مرحلة الإنتاج الثقافي الشفهي إلى مرحلة التدوين والتأليف. (عبد العزيز العلوي، ٢٠٠٢ : ٤١٠) وهذا يعزى إلى عدة عوامل لعل أهمها الانتشار السلس للإسلام [دون قتال]، عكس ما حدث مع تجربة شمال إفريقيا زمن الدولة الأموية، والتي تلاها زخم كبير من المؤلفات حول تاريخ الإسلام ومنها ما أنجزه المسعودي والطبري واليعقوبي وابن هشام، فالدولة ومن خلال مؤسساتها التشريعية والقانونية تنعكس أحكامها على الأوضاع الثقافية لبلد ما وهو ما لم يحدث ببلاد السودان الغربي. وبالنسبة لحالة السودان فمعلوماتنا عن الذين نشروا الإسلام تكاد تكون منعدمة على الأقل إلى حدود نهاية القرن السادس عشر الميلادي. وبالمقابل فالعمليات العسكرية التي قادها جهاديون أفرقة كما هو الحال بالنسبة لأُسْكِيَا محمد (١٥٢٨١٤٩٣) وإدريس ألوما (١٥٩٦.١٥٦٤)، والراجح أن السلاطين الذين قادوا عمليات الجهاد كان هدفهم بسط سيطرتهم على تجارة الرقيق والذهب ولم تكن تحركاتهم تروم إلى نشر الإسلام عبر قنوات كالفقهاء وشيوخ الزوايا والأئمة والوعاظ، بل أن أقصى ما فعلوه هو إجبار القبائل الوثنية على أداء القسم بالقرآن كمؤشر لتحويلهم من وثنيين إلى مسلمين (أحمد الشكري، ٢٠٠٢ : ٢٤٠) ومهما قيل عن هذه الفترة إلا أنه يبدو أن الدولة لم تتعاطى مع الإسلام كدين سيوحد قبائل السودان الغربي إلا بعد انهيار الامبراطوريات ما بعد القرن ١٦، حيث أن الفترة الحديثة والمعاصرة شهدت بناء أنوية المراكز الدينية لترسيخ الثقافة الإسلامية سيما مع الشيخ عثمان بن فودي (ت ١٨١٧) أو مع الشيخ محمد الأمين الكانامي (ت ١٨٣٧). من جهة أخرى فثقافة المدارس العتيقة التي تعود جذورها

إلى منتصف القرن ١٣ ميلادي لم يكتب لها الوجود بالسودان الغربي على اعتبار أن المسجد كانت بمحاذاته الكتاتيب القرآنية، كما أن ضعف عملية التعريب وغلاء الورق زادا من استفحال أمر التدوين والتأليف باللسان العربي مما حال دون انتشار الثقافة العاملة العربية بشكل كبير. إن الوضع الذي ظل عليه انتشار الإسلام يقربنا منه الرحالة الذين زاروا المنطقة وفي مقدمتهم ابن بطوطة الرحالة المغربي؛ ففي كتابه "تحفة النظار" يقدم الرجل شهادته حول تصور الأفارقة للإسلام بشكل يتنافى ومبادئ الشريعة الإسلامية إذ ظل الخلط سائدا بين الدين الإسلامي والتقاليد والعادات التي توارثها أبناء المنطقة أبا عن جد. كما أن ضيق المجال الحضري وانهميار طرق التجارة الصحراوية وأخيرا هناك عامل كان حاسما لصالح تدني المستوى الثقافي لبلدان السودان الغربي، ففي الوقت الذي استرجعت فيه هذه البلدان أنفاسها لتعلن نخبها بداية التمرس في عملية التأليف والتدوين تراجع المستوى الثقافي والحضاري للمغرب بفعل التغلغل الأيبيري مما انعكس سلبا على عملية التبادل الثقافي بين هاذين القطرين بشكل وصل إلى حد القطيعة.

ومع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي لوحظت متغيرات جديدة كانت في صالح الحركة الثقافية نتيجة تضافر عدة عوامل منها ما هو ديني - اقتصادي وما ترتب عنهما من تغيير للبنى الاجتماعية والسياسية، ويمكن إجمال هذه التغيرات في الضغط الذي مارسه الأيبيريون لتقويض تجارة الرقيق والذهب، وانهميار الدول السودانية المركزية مما ساهم في تلاشي أنظمة الحكم القوية والتي عمرت لعدة قرون هذا بالإضافة إلى تراجع دور المدن وهو ما سيؤثر على الفعالية الثقافية التي انتقلت بوزنها إلى أرياف المدن، وخلال هذه الفترة

عرفت بلدان السودان الغربي ميلاد ما يسمى بالإسلام الشعبي البعيد كل البعد عن نظيره الإسلام العالم؛ هذا التحول كان له دور في إيقاظ الحركات الدعوية ذات البعد الإصلاحية.

ب/ الإسلام الشعبي وتراجع الإسلام العالم من خلال نموذج الطريق التجانية:

كرست الطرق الصوفية ثقافة الإسلام الشعبي المختلط (أحمد الشكري، ٢٠٠٢ : ١٥٠) في الأوساط التي تجذرت فيها، والتي كانت مرتبطة بطقوس وعادات منافية لتعاليم الإسلام القويم، ومن خلال المتون الصوفية المحلية يتضح لنا هذا التصور بشكل جلي، وكمثال عن ذلك النصوص التي خلفها الحاج عمر الفوتي التي نفهم منها أن "الإسلام أصبح مرادفا للتصوف ببلاد السودان خلال القرنين ١٨ و ١٩ م (سامي سعيد، ٢٠٠١ : ٢٥٢)

❖ وصول الطريقة التجانية إلى بلاد السودان الغربي :

لعبت قبيلة إداؤغلي دورا مهما في اشعاع الطريقة التجانية بالسودان الغربي، فأصول هذه القبيلة مرتبط بالولاية والصلاح، وحسب بعض المصادر فكل الذين تأثروا بهذه الطريقة و ساهموا في نشرها ينحدرون جينياً لوجياً من هذه القبيلة وقد كان "محمد الحافظ" أحد أعمدة هؤلاء ففي اثناء زيارته للديار المقدسة التقى هناك بعلي حرازم برادة الذي أدله على مدينة فاس التي تأوي شيخ الطريقة التجانية، وبعد لقائه بالشيخ أذن له في الطريقة وعينه مقدما لها وعن طريق هذه الحلقة ومنذ سنة ١٨٣٠، وهي السنة التي تؤرخ لوفاة الحافظ الشنقيطي، سيتولى "مولود فال" مهمة نشر الطريقة ومنهم كذلك ألفا "مايورو ويلي" و"عبد الكريم الناقل" عالم فُوتَاغَالون وخلال هذه المرحلة ستصل الطريقة التجانية إلى ضفاف نهر السينغال بل أن العديد من القرى حملت اسم فاس تيمنا بأحمد التيجاني، وخلال موسم

الحج يحج التجانيون الأفارقة قبر "الحاج عمر توري" ومنه إلى مدينة فاس للتضرع بسيد احمد التجاني قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى مكة والمدينة، والملاحظ أن العائلات العاملة بالسودان الغربي لعبت دورا كبيرا في إشعاع هذه الطريقة بالإضافة إلى التجار والاعيان مما ساهم في التأليف المحلي حول التجانية ككتاب "الرماح" للحاج عمر توري، كما أن الفضل يعود في نشر الطريقة إلى تعدد فروع الزوايا ويمكن الحديث عن ثلاثة فروع هي :

➤ الفرع العُمري نسبة للشيخ الحاج عمر تال.

➤ الفرع المالكي نسبة إلى الحاج مالك سي.

➤ الفرع النِّيَاسي نسبة إلى بيت الحاج إبراهيم نياس.

كان لمحمد الحافظ العلوي دورا كبيرا في إرساء دعائم الطريقة التجانية والثقافة العربية بدول افريقيا جنوب الصحراء وبخاصة دولة السينغال، فقد اخذ ورد هذه الطريقة من مؤسسها سيدي احمد التجاني الذي اذن له بها وسمح له بتلقيقن أوردها بمنطقة شنقيط وقبل وفاته سنة ١٨٣٠ تخرج على يده مجموعة من المريدين كان أبرزهم مولود فال الذي كشف للحاج عمر الفوتي اسرار هذه الطريقة هذا الأخير ارتبط اسمه بشكل كبير بالطريقة التجانية وفي عهده سميت دولة السينغال بالامبراطورية التجانية التي قادت الجهاد ضد الفرنسيين خلال فترة الاستعمار، والملاحظ ان التجانيين كانوا يطلقون على قراهم اسم مدينة فاس تيمنا بالشيخ احمد التجاني.

لقد مكنت التجانية الأفارقة من التعرف على المبادئ الصحيحة للإسلام سيما وأن هذه الأخيرة عمادها الكتاب والسنة والمذهب المالكي الخالي من التعصب، وهو ما يبرره الانتشار

المكثف لدور القرآن والزوايا والكتاتيب. ولم يكن هذا بالأمر الهين لولا شحذ همم الأفارقة لمواجهة التطرف والمسيحية المتمثلة في التبشير والوثنية ومقاومة النفوذ الاستعماري، وحسب مصادر اصيلة فقد قدر العدد الإجمالي لجيش الحاج عمر الفوتي بحوالي إثني عشر الف مقاتل انتقلوا إلى زهاء ثلاثين ألفا، وقد ظلت الأمور على ما هي عليه إلى حين وفاة هذا الزعيم عام ١٨٦٤.

يمكن القول ان الطريقة التجانية لعبت دورا محوريا؛ أولا في نشر الإسلام القويم وثانيا في إشعاع اللغة العربية وثقافتها، فعلى انقاض احمد التجاني والحافظ العلوي الحاج عمر الفوتي لمع نجم علماء أفارقة ساهموا بشكل ممتاز في نشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة في سينيغامبيا عموما وغرب افريقيا خصوصا، وهم مختار بندا سي، خال الحاج مالك سي، مؤسس الزاوية التجانية في تاون، والشيخ عبد الله نياس الذي ربطته بفقهاء المغرب علاقات وطيدة وبخاصة أثناء اقامته بالمغرب سنة ١٩١١.

على سبيل الختم:

ختاما لما سبق يتضح أن انتشار الإسلام بغرب افريقيا مكن من اشعاع اللغة العربية على نطاق واسع، كما ان هذه الأخيرة مكنت الأفارقة من كتابة تاريخهم الذي ظل شفويا لأمد بعيد مما يطرح معه إشكالية حفظ الذاكرة الجماعية، كما ان التصوف المغربي وبخاصة التجاني زاد من تعلق الأفارقة باللغة العربية وحاولوا استيعاب قواعدها نحو واعرابا ورسما، وبالرغم من المحاولات الطائشة للاستعمار الفرنسي والانجليزي الرامية على طمس معالم هذه اللغة إلا أن تعلق الأفارقة بها باعتبارها لغة القرآن زاد من انتشارها على نطاق

واسع وماتزال كذلك إلى يومنا هذا، كل هذا كانت له نتائج إيجابية أسهمت في إنتاج أدب إفريقي أصيل يصور واقع افريقيا بجميع أبعاده؛ بما في ذلك النزاع مع القوة المهيمنة على القارة، والنزاعات الداخلية، ولقد كان للمغاربة الدور الحاسم في بلورة هذا الآداب ومن تم بناء الحضارة الإنسانية والتقدم الإنساني كما كان لهم دورا إيجابيا في بناء النهضة العلمية، والثقافية، والأدبية، ولعل القارة الإفريقية تبقى هي المستفيد الأول من الثقافة العربية في وقت كان الأفارقة يشعرون أن التطور والتحضر رهين بتعلم هذه اللغة في جميع مستوياتها؛ ومن خلال ادبهم وحياتهم الخاصة برهن الأفارقة أنهم اقتبسوا من الحضارة العربية الشيء الكثير. واليوم وفي إطار سياسة الدولة المغربية الرامية على التنمية جنوب . جنوب من خلال ضخ رؤوس أموال مغربية والاستثمار في هذه القارة لتنميتها وحيائها ورد الاعتبار لها يسعى المغرب إلى الاعتزاز بعلاقاته التاريخية مع القارة السمراء التي ينسجها خيط رابط هو الإسلام واللغة العربية والتاريخ المشترك.